الفصل الخامس

وادي الموت

ثلاثة أيام كاملة من العمل الدؤوب كانت كافية لإنجاز ما نبتغيه في شبوة تماماً بأفضل طريقة ممكنة. وقد رأيت هذا المكان ثانية في طريق عودتي من حضرموت حيثما كنا في مجموعة نقص أعداد أفرادها وتغيّر تكوينها. فضل أصحاب الجمال من عشيرة يام استخدام حقهم المنصوص في العقد بعدم التقدم إلى ما بعد شبوة وذلك للإجهاد الظاهر على جمالهم؛ ولذلك فإنهم استبدلوا بمجندين محليين وجمال محلية من الكرب وتركنا مجموعتين من نجد خلفنا للاعتناء بأغراضنا ومخازننا والتي وضعت في مبنى منحنا إياه ابن عفيشة -وكانت الأغراض تضم مجموعاتي المتكاملة- وتركنا غذاء أكثر من كافٍ لتغذية تلك المجموعة التي تركناها خلفنا لكل المدة التي سنقضيها والتي قدرت بأسبوعين. وقد استنزف وقودنا بواسطة سيارتي النقل التي أصبحت فجأة كثيرة الاستهلاك. ولم يكن هنالك وقود في شبوة لمقابلة حاجتنا. كما أنه لا توجد صفيحة كيروسين فائضة واحدة، وقد أخطرنا أنه يمكن الحصول على القليل من الكيروسين في واحدة من قرى عرما التي تقع على بعد نصف يوم فوق الوادي، وعليه فقد أُرسل رجل من أهل المنطقة ليشتري لنا صفيحتين أو ثلاثاً وقد عملنا على أن تزود سيارتي بالوقود الصافي بينما تبدأ الناقلات بمستودع معباً ثم يخفف تدريجياً بالكيروسين وبالطبع سنجد كل ما نحتاجه من الوقود في مدن حضرموت.

احتفظت شبوة بسمعتها المعروفة بالأحوال الجوية السيئة حتى النهاية وكانت الليلة قاسية مع رياح عاصفة رملية تحصب على معسكرنا ولكن مع ذلك لم تعكر صفو منامي. ولقد قررنا أن نبدأ رحلتنا في الصباح الباكر ولكن عند الساعة السادسة صباحاً هبت ريح جنوبية متوسطة منذرة بعاصفة قادمة، بعد ذلك بساعة هبت العاصفة علينا مغرقة كل شيء في رمالها. وكان الوضع غير مريح حيث كنا نحتشد

خلف السيارات والأمتعة. وكان عبود هو الوحيد الذي استمر في عمله كالمعتاد فلا يمكن أن تعيق العاصفة طبخ الطعام. وثمة لحم لاثنين من الأغنام وكمية ضخمة من الثريد كانت تتقلب في المرجل محدثة صوتاً خفيفاً. وعند وقت الأكل القليل من الرجال لا يقلق كثيراً. وكان علينا أن ننتظر حتى تسكن العاصفة والذي لم يحدث حتى اقتراب منتصف النهار. ولم يخف رجالي كراهيتهم لشبوة وكانوا يطلقون عليه بلاد الشياطين، وبالتأكيد فقد وجدنا فيها ظروفاً جوية سيئة ولكن سكانها كانو عطوفين أو مضيافين. فقد تقبلوا دون اعتراض الإقامة المستمرة المؤقتة لنصف مجموعتنا في داخل منازلهم في مقابل عودة النصف الآخر. ووجودنا معهم كانت له ثماره بالنسبة لهم، فقد خلق سوقاً جاهزة لأشياء مثل اللحم والحليب. وكذلك أوجد بعض فرص العمل. وكنا ندفع لهم بسخاء.

حوالي الساعة التاسعة صباحاً غطت سحب الرمال كل المنطقة. لم أكن أرغب في التحرك حتى أرى العلامات الأرضية، وحتى اللحظة الأخيرة كنت مشغولاً بالعديد من الزوار معظمهم من الشباب والأولاد الذين كانوا يجلبون بعض القطع الأثرية التافهة مقابل قليل من النقود. ولكي أتجنب حمل أكوام من المخلفات القديمة غير المهمة إلى المعسكر كان لابد لي من اختيار الأفضل، في الوقت نفسه لم يكن لشبوة عملة نقدية، فأصغر عملة نقدية معدنية كان هو دولار ماريا تريزا والذي يعرف محلياً -كما في حضرموت- بالقرش وعليه فقد اضطررت لاستعمال العملة المعدنية الصغيرة لسوق نجران الزلط اليمني -مقارنة بالزلوطي البولندي-. وكان الدولار يعادل ثمانين أو مئة وستين نصف زلط. وهذه العملة لم تكن ذات استعمال عملي بالنسبة للمتقبلين لها ولجعلها متوافرة كعرض وغطاء قانوني فقد أنشأت مصرفاً لتبديلها إلى دولار بمعدل ٩٠ للدولار الواحد وقد حقق المصرف ربحاً معقولاً في هذه العملية واسترجعت كل الزلط لي ولرفاقي الذين أنشؤوا مؤسسة منافسة لبيع البن والشاي والسكر للقرويين. وعليه فقد كان الجميع سعداء وقانعين.

في منتصف الصباح جلبت لي امرأة طاسة مليئة إلى النصف بالحليب وبالمقابل منحتها قبضة ممتلئة بالنقود المعدنية مع إبداء بعض اللوم لما أظهرته هي من بخلٍ. فأجابت: «لقد أصابنا الجفاف ولا يوجد حليب في أثداء أغنامي في هذه الأيام». بعدما أعلن وقت تناول الغداء وأسرعنا جميعاً لتناوله قبل أن تهب علينا الرمال مرة أخرى، ويعد الأمر مستغرباً أن يكون في مقدور أي شخص الطبخ في مثل هذه الظروف وعلى الرغم منها فقد كان اللحم والوجبة ممتازة. وقد جلب اللحم سالم بن حمد رئيس قبيلة آل مسفر من الكرب. وفي اليوم السابق أخبرني أن هذا الرجل يحملُ عليَّ وقد يسبب لنا متاعب لأن الطريق إلى حضرموت يمر عبر منطقته. وفيما يبدو أنه قد مر على خيمتي في الصباح مزجياً التحية المعتادة وبما أني لم أتعرف عليه فقد رددت له التحية كالمعتاد دون أن أقدم له الدعوة ليمكث معي. وقد تم تصحيح الخطأ بسهولة فقد أرسلت له سعد بن معيلم للقاء خاص وأتى في الحال. وقلت له: «لقد أخبروني أنك غاضب ولكن بالتأكيد دون سبب، خلال كل اليوم يمر الناس عليَّ يردون الدعوة لخلاصي وأنت فعلت ذلك مع الآخرين وأنا لست بنبي لأعلم أن سالم بن حمد هو الذي يحييني. والآن علمت ذلك فمرحباً بك. إذا سرت معنا إلى حضرموت فسيكون هذا شرفاً لنا وسوف تكون راكباً بجانبي. وليس فقط إلى حضرموت الآن ولكن إلى نجران ومكة عند عودتنا، ولكن لو حدثتني أنك سالم بن حمد عند مرورك لكان أفضل. لقد بقيت كل هذه الساعات دون أن أحظى بشرف معرفتك، وعليه فقد عقد الصلح بيننا والأغنام التي أكلناها الآن كانت هي هبة السلام». وركب سالم بن حمد معنا حتى حدود منطقته وهو رجل ذو جاذبية، رقيق نتيجة لحياة الصحراء القاسية ومتوسط العمر وناضج، ذو شعر رمادي اللون خفيف وعيون براقة وقوية، وخفيف اللحية ورزين الملامح.

كانت الساعة الثانية ظهراً عندما تلاشت العاصفة وعادت علامات المنطقة الأرضية للظهور فبدأنا رحلتنا. وطريق حضرموت عبر كل طوله يجري ويضيق

بالتدريج إلى ممر رملي أو سهل من الحصى يفصل البحر الرملي، رملة السبعتين في جانب وصف الأراضي الرئيسة لمنحدر حوق الصخري في الجانب الآخر: وفي النهاية كان علينا أن نتعامل مع قناة المحباض القاسية حيث تميل حول النهاية الشرقية لجزيرة شبوة لتلاقي المعشار. والفرعان الصغيران لوادي المعشار هما شعيب البدعة وسليل معني يجريان إلى أسفل من المنحدر الصخري لتقاطع طريقنا على بعد قليل، وبعدها انحرفنا عن طريقنا الداخلي في سهل شاسع من الرمال القوية أو الحصى الخفيف.

بعد عشرة أميال خارج شبوة وصلنا إلى مناجم ملح مقاة وهي مقاة في القعة الرملية المنخفضة والتي تشكّلت من الشق المرتفع والشق المنخفض لمجموعة صغيرة من التلال في زاوية التقاء «شعيب البيرة» و«وادي مقاة» وكلاهما ينحدر من الصخور لتي على يميننا -مع ذيل وادي المعشار وعندها يخرج الأخير من خلف النسر الشرقي، وعلى طول جانب مرتفع القويد-ذي الفجا- والتي في النهاية تُمتص في حوض رملي ضحل يسمى الخشعة.

وقفنا لفترة عند حُفر الملح في الحوض المحيط بالتل. وقد غادرت مجموعة راكبي الجمال شبوة في الوقت نفسه معنا حيث اتفقنا على أن نعسكر عند الأرض الرئيسة في خشم رميد لقضاء الليل بها وعليه سوف يتوفر لنا بعض الوقت الكافي لفحص المناجم، كما هو الحال في تلال شبوة. وتتكون المرتفعات والمنخفضات من طبقات مشوهة للغاية ومطوية بحدة وكأنها قد قذفت إلى أعلى وإلى الخارج بواسطة قوة عظيمة من أسفل. وتجدر الإشارة إلى أن المرتفع الرئيس والذي يبلغ طوله ٥٠٠ ياردة يجري عبر الحافة الجنوبية لحوض الملح في أربعة خطوط متوازية تقف طبقاته بشكل عمودي تقريباً. وهنا على النقيض من شبوة، أعمال الملح لا تكون في داخل أو تحت الصخور الواقفة إلى أعلى ولكن تحت سطح الحوض أو المنخفض المحيط به. وهي عبارة عن عدد كبير من الحفر ومعظمها تقريباً مدفونة في الرمال، أكبرها حفرة كبيرة في الأرض حوالي ثلاثين قدماً في العمق وألف خطوة في مساحتها السطحية

والتي تعطي ناتجًا يعادل ١٩٠٫٠٠٠ قدم مكعب من صخور ملحية والتي حفرت في خلال ألفين أو ثلاثة آلاف عام. وهذا التقدير يجب أن يضاعف للوصول إلى الإنتاج الكي للمنجم في مجمله، وذلك لأن معظم الحفر مغطاة بالرمال لأعماق كبيرة مما يجعل قياسها صعباً للغاية. ونتيجة للغياب الكلي للماء في هذا الجوار فإن ملح منطقة «ملح مقاة» فقط يعمل فيه البدويون (آل مسفر) الذين يملكونه عندما يكون المرعى المحلي جيداً مما يسمح بالمعسكر في وادي مقاة والمناطق القريبة منه. وعليه فزمن العمل محدود ولكن في معظم السنوات تغذى هذه الأودية بواسطة السيول وتوفر غذاء للجمال والأغنام لفترات مختلفة.

كان الجو حاراً في الأحواض وكان العرق يتصبب منا عندما كنا جالسين أو متجولين حول الحفر تحت لسعات شمس النهار التي لا ترحم. والسير فوق سهول كبيرة من الرمال الناعمة المتموجة قليلاً، كان جيداً عندما استأنفنا سيرنا للوصول إلى أسفل الأرض الرأسية (غير المحروثة) حتى رميد بعد مسيرة خمسة أميال. وفي هذه النقطة تغير اتجاهه فجأة إلى الشرق. ملأت أمواج متلاطمة من الرمال الدائرية ومعها كمية من الأعشاب (المرخ - أكاسيا والسرح) وحشيش خشن الممر بين الأرض الرأسية والخط الطويل ذي الاتجاه الشرقي من رمال السبعتين، والذي تبرز منه في فترات ألسنة عريضة من كثبان الرمال الثقيلة متجهة جنوباً نحو الخلجان على امتداد الخط الصخري المنحدر العظيم. وأول هذه الخلجان الذي يقع بين رميد والأرض الرأسية التالية من التهيفات - كتلة رائعة من الصخور الجيرية الخلابة، واثنان من خطوط التصريف (قناة الحسوة إلى الشرق وداجل إلى الغرب) اتحدت لتكوّن القناة الرملية العريضة، قناة واديان والتي تجري في أمواج الرمال التي ذكرت من قبل. وعلى ضفتيها تصطف أعداد من أشجار السط الرائعة والتي اخترناها كموقع مناسب لمعسكرنا.

وبعد قليل من إقامة المعسكر هبت عاصفة رملية شديدة من الجنوب. ثم بعد قليل أصبحت تهب من الشمال بحدة غير متناقصة ومرة أخرى عادت تهب علينا من

الجنوب. وفي هذا الوقت أرخى الظلام سدوله وأشعلت مصباحي ولكن الهجمة الأخيرة للعاصفة أطفأته ولجأت أنا إلى النوم حتى تصبح الأحوال مناسبة لنشاطي الليلي المعتاد. أيقظني من النوم عند الساعة الحادية عشر ليلاً الإعلان لتناول طعام العشاء وفي هذه الأثناء تناثرت قطرات قليلة من الأمطار وكانت السحب الثقيلة تغطي السماء؛ لذا نمت مرة أخرى تاركاً تعليمات لإيقاظي عندما تظهر النجوم. وعليه فقد قمت بإجراء ملاحظاتي قبل أن يخفى الفجر النجوم. وقد كانت ليلة مدهشة ولم يكن هناك شيء رائع أو مثير في هذه العواصف الرملية التي تحدث باستمرار في شبوة. وهي فقط عبارة عن سحب من الرمال تتجول من هنا إلى هناك كأنها لا تدري ما تود أن تفعله. وهي في اعتقادي تشابه العرب المحليين لا مرسى لهم ولا فطنة: يتجولون ويتساءلون متى يرضى عنهم الله ليحوّل فقرهم إلى غنى. ولقد لفت نظري سالم بن حمد؛ وذلك لأن له هدفاً في حياته أكثر من رفاقه. وحتى في تلك اللحظة كان مشغولاً بمشروع لاستخراج الماء من واد ليس به آبار. وكان يتحدث بتعقل عن مستقبله ومستقبل قومه ويتحدث بغيرة عن حياة جيرانه من الجهة الشمالية الآمنة. وملامحه من النوع النجدي وملابسه كذلك.

في الصباح ذهبنا سوياً لنتسلق قمة الأرض الرأسية في رُميد وكان مقدمتها وجانباها شديدي الانحدار مما يجعل المهمة صعبة. وكان علينا أن نسير إلى مسافة على طول قاعدتها قبل أن نجد منحدراً به سهولة معقولة من الأحجار الجيرية الخشنة القاسية جداً، حيث زحفنا بحذر إلى قمة الأرض الرأسية العريضة المسطحة، وهناك تمكنت من رؤية منظر كامل للمنطقة المحيطة. قريباً من شبوة نفسها في الجنوب وحتى الساحل الضبابي في خشم عساكر من ناحية الشرق، بينما في اتجاه الشمال يقع حاجز ـملة السبعتين وخلفه كما قال يمكن أن تظهر تلال العبْر في ظروف جوية أفضل. وهبت رياح عاصفة عندما كنا جالسين هناك حوالي ٤٠٠ قدم فوق معسكرنا. وكانت السماء

ملبدة بالسحب الكثيفة والجو مفعم ببرودة محببة ولكن كان كل ما حولنا ضبابيًا قاتمًا وقد وجدت عدداً من أحافير عصر الأيوسين في القمة وفي المنحدرات والمرتفعات معاً عندما كنا ننزل إلى أسفل مرة ثانية. وغادرت مجموعة راكبي الجمال منذ مدة طويلة قبل وصولنا إلى رفاقنا في المعسكر. جلسنا لنحتسي أكواباً من الشاي وبدأت تهب نصف رياح عاصفة ومرة أخرى انفجرت عاصفة الرمال علينا ولكن لبرهة قليلة.

واجهتنا مشاكل بسيطة من سيارات النقل عند البدء مع وقودها المخلوط ولكن عند الساعة التاسعة صباحاً تمكنا من المغادرة وكنا نشاهد المنظر الرتيب للمنحدرات الصخرية والأراضي الرأسية ممتدة بلا نهاية على طول الجانب الأيمن من خط سيرنا. وبعد اثني عشر ميلاً من السير السهل وصلنا إلى وادي شعيب النقعة وهو قناة واسعة تنحدر من خليج عميق بالقرب من أرض رأسية ضخمة تسمى قفض وتغطيها كمية وفيرة من الأشجار الخفيضة. وكان الممر في هذا الوادي خشناً للغاية ووعراً وذلك لوجود الأكوام والهضاب الصغيرة من الطمي التي تعتمد عليها أعشاب الحرمل والصفار. وقد أغرى المرعى النضير مجموعة راكبي الجمال لقطع رحلتهم على الرغم من أن الوقت ما زال مبكراً. وبعد أن أوضحت لهم رأيي في تقدمهم البطيء واصلت السير في طريقي تاركاً لهم أن يتبعونا. وكان مجرى القناة في المنطقة التي عبرتا فيه يبلغ عرضه أكثر من ميل، وخلفه يقع سهل شاسع من الحبيبات الخشنة القوية والرمل الخفيف والتي فوقها قدنا سيارتنا عدة أميال في اتجاه الشرق. وأشار سالم إلى واد صغير (مُصيرم) ناحية الجنوب من رقعة الأعشاب والتي حضرت تبعاً لنصح سيد من حضرموت له سمعة محلية في القدرة على معرفة أماكن الآبار، وقد عمل في حفريات البئر آنفة الذكر. وقد ذكر أن اسمها "بئر القرظي" وذلك توقعاً للنجاح الذي لم تقطف ثماره بعد. ولم أستطع أن أزور الموقع في طريق عودتي كما كنت أتمنى ولكن بالتأكيد إنها لا تبدو لي موقعاً مناسباً للبحث عن الماء.

وبعد قليل وصلنا خلف السهل إلى بئر عساكر في واد واسع مليء بالأعشاب يسمى سليل شبيريم أو سليل البئر، يجري على طول منحدر صخري لخشم عساكر لينتهي عند حافة الرمال. وعند البئر وجدنا القليل من الرجال والنساء يقومون بسقي أغنامهم وجمالهم وجميعهم من قسم المرادعة من قبيلة نهد، وعليه فهم من أقارب ناصر بن شماخ الذي استطاع الآن أن يحصل على أخبار مؤكدة عن موقع عائلته. والرجال ذوو وسامة وسذاجة وكانوا عراة حتى الخصر ويلبسون ما يستر العورة حتى الركبة وهذا اللباس مزين بخنجر مثبت على الخصر بواسطة لفة من القماش[1] غير محكمة. واحدة من النساء ذات مقام رفيع عمرها بين عشرين إلى خمس وعشرين سنة تملك جمالاً ملحوظاً كتمثال فينوس مزيّنة بقميص أزرق مثبت بالخصر بواسطة حزام من مادة مطرزة أو مزخرفة رخيصة ومفتوح من الجانبين، كاشفة عن خطوط بارزة لجذع جميل عندما تعمل هي على الحبال. وكل النساء يلبسن الملابس نفسها، بينما الفتيات الصغار كن عاريات حتى الخصر ويلبسن فقط مريلة من السيور الجلدية مزينة بأصداف الودع المعلقة فيها وذلك لتغطيهن من الأمام والخلف، وحول العنق يوجد عقد من الخرز. والأولاد الصغار بالمقابل عراة كلياً من الخصر إلى أسفل، ولكنهم يلبسون خرقًا ورقعًا فوق أجسامهم. واكتمل المشهد الإنساني بحضور اثنين من الأطفال مغطيين بظلة من الأغصان المقطوعة ويجلسان فوق مهد من الجلد. والمرأة الجميلة الصغيرة وبنت أخرى صغيرة الحجم تلبس مريلة من السيور. ولقد تحققت أنهما أكبر وأصغر شخصين من عائلة تتكون من سبعة أفراد تتبع لرئيس المجموعة واستقبلنا أفرادها بضيافة وقدموا لنا الحليب ودعونا إلى مخيمهم في أعلى الوادي لتناول وجبة مكتملة عندما ينتهي عملهم اليومي في السقي.

سميت بئر عساكر بهذا الاسم كما قال سالم، لأنها حفرت في موقع عمود يرجع تاريخه إلى العصور القديمة، بواسطة جنود تابعين للإمام فيصل بن سعود[2] في

(١) يسمى الإزار وهو لباس يشتهر في جميع سواحل جزيرة العرب على البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي. (المراجعون).

(٢) أي الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

الوقت نفسه الذي خطط فيه طريق العبر للحجاج. وعمق البئر ليس أقل من خمس وثلاثين قامة. وقد وجدت عند قياسي للحبل أن طوله أربع وثلاثون مرة مثل طول امتداد يدي الاثنين ولنقل ٣٤×٥,٧٥ أو ١٩٨ قدماً. ويبدو لي أنه من المستغرب أن يستعمل هؤلاء الناس آباراً بهذا العمق الهائل ومع ذلك لم يستخدموا نظام السحب بواسطة الجمال التي تستعمل عادة في نجد وفي الآبار العميقة في الربع الخالي. والحقيقة أن كل العمل تقوم به النساء وهن ينشدن «ياهب وهب هب وهي هي أوب» ويتواصل الإنشاد حتى يرتفع الدلو إلى أعلى البئر من العمق في الأسفل حتى يُمسَك به ويصب الماء في الأحواض المصنوعة من الجلد الموضوعة بين الحيوانات. هذا عمل عظيم بالتأكيد ولكنهم لا يعيرونه اهتماماً. وكل ذلك جزء من الواجب اليومي الذي يفرضه الله الذي يراقب رعيته وعباده. ويبلغ قطر البئر في الأعلى ١٢٠ قدماً تقريباً، أما فوهة البئر فقد رصفت بحجارة غير مشذّبة متوسطة الحجم من أعلى حتى القاع خلال رمال الوادي.

هناك طريق الجمال العادي من حضرموت إلى قرى عرما الذي يجري إلى أعلى هذ القناة ومن ثم إلى داخل خليج مبطن بمنحدر صخري شديد، ومنه يرتفع إلى شريط رفيع من السهل الواسع ثم ينزل إلى وادي عرما في الخلف. وخشم عساكر نفسه عبارة عن كتف جبل يرتفع ٧٠٠ أو ٨٠٠ قدم فوق البئر في حافة صخرية طويلة مفلطحة القمة وخلفه صفوف غير واضحة من الأراضي الرأسية المتشابهة تذوب في البعد في أراضي «الرملة». وكان الجو حاراً والهدوء مخيماً عندما توقفنا وقد مدتنا فترة التوقف هذه حتى الساعة الرابعة والنصف ظهراً وذلك لأن مجموعة راكبي الجمال ما زالت خلفنا بمسافة طويلة. وقد ظهر خط من الظلام في السهول الصفراء ويبدو أن هنالك عاصفة تختبئ في مكان ما على البعد في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي، جاهزة لتهب علينا أثناء تقدمنا.

مررنا من الوادي إلى طريق من الحصى الخشنة انطرح من منحدرات البقايا التي تكسو الجزء الأسفل لحواف جبل عساكر كالمريلة. وهنا طريق الجمال الملتوي مسجل بعلامات عميقة على سطح السهل. وعلى جانب الطريق يقف ركام ضخم من الحجارة يمثل المساهمة الدينية للمسافرين عبر هذا الطريق لأضرحة بعض الأسياد المتوفين الذين لا تعرف الأجيال الجديدة أسماءهم الآن. والطريق في هذه المنطقة يجري في مسافة غير بعيدة جداً من خط المنحدر الصخري حيث يتقاطع في فواصل بواسطة أربعة خطوط عشبية للتصريف تجري إلى أسفل في اتجاه ذيل وادي عساكر. وعلى اليسار توجد كتل متلاطمة من الرمال تصل إلى حافة سهل الحصى، تحد عرض طريق المرور الذي كانت له سمعة سيئة في بعض الأوقات كملجأ للصوص قاطعي الطريق. ومما لا يدع مجالاً للشك أنه للحفاظ عليه كطريق مفتوح لاستعمال المسافرين الشرعيين، شيدت القلعة الصغيرة أو نقطة مراقبة قرن البنا في العصور القديمة، كما أعيد بناؤها ثانية في فترات مختلفة لحكومات قادرة على فرض احترام سلطاتها.

في هذا المكان، بعد الاستمرار في قيادة السيارة لعشرة أميال من بئر عساكر، نصبنا مخيمنا لقضاء الليل ولننتظر بصبر حتى تصل جمالنا وكذلك طعام العشاء. وبما أن الوقت كان على مقربة من وقت مغيب الشمس عند وصولنا، تركت الهضبة الصغيرة وآثار الخراب التي أخذت اسمها منها وذلك لإجراء الفحص عند الصباح. وعند قاعدتها تقع بئر مهجورة مشيّدة بمهارة عالية بواسطة كتل حجرية مشذّبة وقطرها عند فوهة الأسطوانة حوالي عشرة أقدام. ولم يستطع سالم أن يخبرني عن الوقت الذي كانت تحتوي فيه البئر على ماء ولكنه افترض أن العمود والبئر معه قد أُجريَ لهما صيانة واحتلت بواسطة جنود فيصل. وكذلك لم يستطع أن يخبرني عن عمق الأسطوانة حتى سطح الماء. وفي الوقت الحالي فهي مغطاة بالرمال من حوالي خمس وعشرين قدماً أسفل القمة. أما الهضبة نفسها فلم يكن ارتفاعها أكثر من ثلاثين قدماً وتتكون من حجارة رملية ضخمة في القاعدة مغطاة بواسطة ألواح ضخمة وصخور كبيرة الأحجام

من لحجر الجيري وهي جسم خارجي معزول من المنحدر الصخري الرئيس والذي خفض إلى خطه الحالي على بعد ميل بواسطة التّغيرات الجوية منذ آلاف السنين.

وعلى القمة توجد بقايا الخراب المتداعية لمبنى صغير غير مثير للاهتمام ما عدا وجود جدران مغطاة بالأسمنت والتي قد تكون عبارة عن صهريج على جانبه. وهو خالٍ كلياً من النقوش وقد لا يكون أي شيء أكثر من عمود للطريق. وحول قاعدة الهضبة بين مداميك الحجارة الرملية الناعمة الوجه والمتهاوية على المنحدر وجدت عدداً من لنقوش الحميرية للعرب الأوائل، فضلاً عن رسومات ومخربشات عديدة تشمل تمثيلاً جيداً لراية الاتحاد البريطانية.

ونقطة الحراسة هذه استعملت من أجل حماية الطريق، إذ تتحكم في الدلتا الشاسعة لوادي دُهر والتي ترتفع إلى الخلف بعيداً في عمق السهل الواسع بالقرب من رأس وادي عربة في اتجاه جنوبي غربي من هنا، منحدرة إلى السهل، لتجري بين الخطوط المتباعدة لسلسلة ثنائية من منحدرات صخرية رائعة وأراض رأسية عند قدم الكتب (دعامة) المهيب يدعى خشم عندل والذي يمتد في الدلتا عن طريق ثلاثة خطوط تصريف سهلة التمييز مغطاة بكثافة عشبية وشجيرية أكثرها نحو الغرب، ويأتي شعيب فريحة نحو قرن البنا ويحيط به عند مروره إلى نهايته الرملية. وفي القناة الوسطى مستوطنة صغيرة تسمى محيميد -تتكون من حصن منفرد من طابقين واثنين أو ثلاثة أكواخ طينية منخفضة- في قاعها، وتتلاشى إلى سهل رملي في اتجاه الشرق. والفرع الثالث سيله الذي يجري بالقرب من المنحدرات الصخرية على طول ضفته اليمنى والذي يمكن اعتباره المجرى المؤثر لوادي دُهر. إنه يمر على الأرض الرأسية لخشم مجوعة، وعند أسفله في القناة توجد بئر تحمل الاسم نفسه، ليلاقي الوادي الهام، وادي رخية في بئر حمد، ثم تستمر القناة المشتركة حتى وادي حضرموت. وعليه فإن دُهر في الوقت الحالي هو الفرع المؤثر لوادي حضرموت في جهة الجنوب

من الرملة. وكل القنوات التي تقع على جهة الغرب منه تختفي في الرمال قبل أن تصل إلى هدفها المنشود. أما مستوطنة محيميد فهي تتبع لسالم بن علي بن مقصف رئيس عشيرة القمازين من قبيلة نهد. وقرن البنا تعد عموماً الحد الفاصل بين قبائل الكرب ونهد، والأخيرة (نهد) تحتل فقط الدلتا في دهر ورخية، بينما سهل احوق يتبع لمجموعة آل بلعبيد التي لها صلة قربى مع الكرب في اتجاه الشرق حتى المراكز الرئيسة العليا لرخية وهي مع المنطقة المحيطة بها تتبع لوحدة قبلية غير مرتبطة ومستقلة تدعى سهابيل. وتزعم نهد أنها من أصل قحطان وتكون مع المرادعة والقمازين أنسام تدعى آل يزيد (السويدة وبني زوع)، آل ثابت والحكمان (السكارين وآل عجاج) إضافة إلى ذلك فإن القائمة الكاملة للأقسام والفروع الصغيرة لنهد تشمل: بذياب، آل يماني، حديجان، آل بدر، حتيرش، مقيزع، آل منيف، السرمان، آل حويل، عطير، عرفان، آل شبيب، آل عبري، المقاريم آل خرشان[1].

حتى الآن ونسبة للضباب المحيط بنا فإننا لم نر أي شيء من البلاد الواقعة شمال الرمال، والتي تكون عند الظروف الجوية الممتازة واضحة بسهولة حتى جبال العبْر. وهنا من قمة قرن البنا استطعنا أن نرى المشهد الأول من هذا الجانب للأرض الرأسية لطرف العين والتي لوحظت من قبل من قمة أبو مخاري. هذه هي البقعة الأولى التي يبدأ فيها الحزام الضيق لرملة السبعتين والأودية التي على جانبيه لتصبح محاطة من الجانبين بالمنحدر الصخري حيث تكوّن ما يشبه القمع الذي يربط القناة الميتة الثلاثية لسبأ القديمة، مع الوادي الحي «حضور الموت». ومن خلف «حريق العين» في اتجاه الشرق، كان يمكننا أن نشاهد بغير وضوح دعامات وادي سر البعينة. وهي دهر على الجانب الجنوبي، تمثل الرافد الأول العامل لوادي حضرموت من

(١) هناك فروع أخرى من هذه القبيلة لم يوردها المؤلف، وللمزيد عن هذه القبيلة انظر: الشاطري: أدوار لتاريخ الحضرمي، ص ١٧١، ١٨٠، ٣٦٣-٣٦٤.

الجانب الشمالي للرملة، والذي تقع حافته الجنوبية إلى الخلف على بعد ثلاثة أميال من موقعنا الحالي.

تركنا سالم بن حمد عند قرن البنا قبل أن نستمر في رحلتنا، وبدأت الجمال من قبل عند الساعة ٥:٣٠ صباحاً حتى تستطيع استعادة الزمن الذي فقدته أمس. وبقي سالم في ذاكرتي في هذه الرحلة الطويلة كواحد من أكثر الأفراد الذين التقيت بهم منطقاً وجاذبية ولم يبد في أي وقت أي علامة لحب المال والربح الذي دائماً ما يحجب الصفاء الداخلي لرجل الصحراء. وقد تقبّل هديتي البسيطة دون أي كلام. وودعني بدعواته بعد أن تحدثنا كثيراً عندما كنا نجلس على قمة التل الصغير وجدياً عن سياستهم في الصحراء وآمالهم ومخاوفهم. ثم غادرنا إلى القصر الذي أتينا منه تحت قيادته وأخذ معه من مخزوننا قليلاً من البن وقليلاً من الخبز كزاد للطريق. وسوف يلتقي ببعض أهل منطقته عند طيات منحدر عساكر أو في الوادي ومن بينهم زوجته.

كانت الليلة كئيبة وهبت فيها رياح نصف عاصفة في معظم الوقت. وكلما تهب الريح تحمل أيضا سحباً من الرمال، عندما كنا مجتمعين، سالم وكاتب هذه السطور والقليل من الآخرين، أمام المذياع حتى يتوفر لي الزمن لتسجيل ملاحظاتي ولكي نستمع إلى الصوت الذهبي للقدس يعلن الأخبار اليومية وكنت دائماً أتعجب كيف يكون شكل تلك المذيعة التي يصلنا صوتها كل ليلة هناك في تلك المنطقة الموحشة، بهدوء ووضوح. بالنسبة للعرب الذين لا يفهمون معنى كلماتها هو مجرد صوت امرأة تتحدث في تلك العاصفة، ولكن قد يثير انتباههم بغير حماس في الحالة الخاصة عندما يعلن المذيع العربي توقيع الاتفاقية بين مصر وبريطانيا. وذلك أمر يمكن أن يفهموه في خضم الأشياء الأخرى غير المفهومة على الرغم من أنها ذكرت باللغة العربية. وعند منتصف الليل زاد عنف العاصفة ولكن الفجر كان هادئاً وساكناً وبريئاً.

بينما اختفى سالم بعيداً، اتجهنا بسيارتنا إلى جهة الشرق وسرنا في طريقنا عبر الشواطئ العديدة لوادي دهر والأشرطة المتداخلة من الحصى بين قناتي منعنب والسيلة. وكانت القيادة سهلة جداً عبر سهل رملي عريض بينما الأشرطة العديدة من المناطق المغطاة بالشجيرات والخطوط المنخفضة من الرمال المكونة لوادي السيلة لم تشكل أي عائق. وبعد ذلك بميلين أو ثلاثة أميال وصلنا إلى بئر مجوعة وهي بئر عميقة عند أو بالقرب من قاعدة أرض رأسية شامخة تحمل الاسم نفسه. وهذه البئر يبلغ عمقها خمس وثلاثون قامة، مبطنة بحجارة إلى ست قامات من رمال الوادي، وبهذا تقطع عبر صخرة الحجر الرملي التحتية، وهناك عدد من الرجال والنساء متبلدي الإحساس وغير مضيافين كانوا يسقون جمالهم وأغنامهم، أخبرونا أن بئرهم على وشك أن تجف، وهذا ما يبدو فعلاً. ولم يشهد وادي دهر أي سيول هذا الموسم على الرغم من أننا وجدنا أن مجرى وادي رخية الذي يبعد خمسة أميال مبتل من هطول أمطار غزيرة في الأسبوع الماضي.

تقف الأعمدة الثنائية المربعة الرؤوس في قوايم السر أو الثكمين كحارس لمدخل وادي سر خلف حزام الرمل، الذي ظهر لنا للمرة الأخيرة من على البعد من ناحية الشمال الشرقي. وفي الحال وصلنا إلى حافة الدلتا الواسعة بوادي رخية والتي عندها يمتد إلى الخارج على شكل مروحي من واديه العريض المحاط بالمنحدر الصخري ليلتحم مع دهر عند حافة الرمال. وفي وسط هذه الدلتا على بعد ميلين وصلنا إلى الحصن الصغير وبئر عامر حيث قررنا أن نعسكر حول البئر التي يوجد بالقرب منها مجموعة من الأكواخ الصغيرة مصنوعة من قضبان مضفرة بالقصب والقش. وعلى بعد أميال قليلة في أعلى الوادي وأسفل أرض رأسية على ضفتها اليمنى تقع مجموعة أخرى من الحصون الصغيرة حول بئر تسمى الحسوة تتبع آل خرشان وهي من الأسام الصغيرة لنهد، وقد أخبرت أيضاً بمستوطنات أخرى أعلى النهر. ونحن الآن بالتأكيد على أعتاب منطقة بها مياه جيّدة وبها مجموعة سكانية معتبرة من نهد والذين يعد

ميلهم نحو عدم احترام القانون العائق الوحيد لتطوير منطقتهم الخصبة على الرغم من أنها رملية. وبالقرب من معسكرنا يوجد حوض كبير محاط بفواصل رملية لتحجز مياه السيول. وفي إحدى زواياه كوّنت الأمطار التي هطلت حديثاً بركة كبيرة بينما تغطي مجموعات من أشجار "العلوب" المخضرّة مساحة كبيرة. ومياه بئر عامر عمقها ست وعشرون قامة عن صخرة الأحجار الرملية والجزء الأعلى من الأسطوانة مضفور بالحجارة كما هو الحال في مجوعة.

كانت مجموعة الجمال قد استقرت للراحة منتصف النهار بين أشجار العناب (العلوب) ولكنهم انضموا إلينا في البئر والتي أردت أن أقيم المعسكر فيها لإجراء ملاحظاتي . وهناك بعض الزوار من نهد أتوا مباشرة بعد استقرارنا، وسمعتهم يحيون رفاقي عند وصولهم ويقولون: «أيها الربع، هل هذا نصراني» وفي هذه المناطق تستعمل هذه الكلمة لتعني عادة شيئاً أكثر من أجنبي بقليل، وإنهم سمعوا كما أوضحوا الآن أن هنالك نصرانياً يسافر في المنطقة؛ لذا فقد أسرع رفقائي لتصحيح الخطأ لهم وقد ترددوا في قبول التوضيح. وعلى كلٍ فقد جلسوا معنا ليستمتعوا بضيفتنا عند تناول وجبة العشاء. وقد لاحظت أنهم حصروا اهتمامهم على اللحم، متجهلين عجينة الخبز والتي أصبحت منذ زمن بديلنا للأرز.

هنا، مرة أخرى هبت علينا عاصفة رملية بعد وصولنا وأتت علينا من الشمال ومؤقتاً أخفت كل العلامات الأرضية في هذا الاتجاه، وبعد توقف العاصفة في منتصف النهار تجولت بين أشجار العنّاب والتي أوت مستعمرة كبيرة من العصافير الصغيرة، لا توجد طيور أخرى عملياً لكني رأيت طائر الذعرة وطائراً صغيراً ذا ذيل طويل يهتز بالقرب من الماء. وقد كان الجو حاراً وثقيلاً أثناء النهار وساكناً جداً مع سحب العاصفة المتجمّعة حولنا في تلك الليلة وللمرة الأولى جذب الفانوس مجموعات من الحشرات ومعظمها كان من الجنادب. وجدت في رمل القناة كتلاً من أصداف صغيرة ملتوية وفي صباح اليوم التالي (١٥ أغسطس) لم يكن هناك ما يشير

إلى هبوب عاصفة ولكن ظهر على الأرض ضباب خفيف أخفى العلامات الأرضية البعيدة. وكالعادة تقدمت مجموعة الجمال وسبقتنا في الرحيل وبدأنا نحن الرحيل حوالي الساعة ٨ صباحاً وبعد التحرك مسافة ثلاثة أميال وصلنا إلى بئر عمقها ثماني عشرة قامة وهي بئر حديجان التي يوجد بها الحصن، كالمعتاد بجانبها، وتتبع الحكمان من نهد. وكانت هناك مبان شبيهة تحمي البئر تحت الأرض الرأسية عصم وحزيم التي ليست بعيدة. وإلى يمينها توجد الحواف الصخرية "بودو Budu" التي تكوّن الضفة اليمنى لدلتا رخية عندما تظهر في السهل. أما بئر عاصم التي وصلنا إليها بعد ذلك تقع في وسط واد رملي شاسع مع وجود بعض أشجار السدر وشجيرات خفيضة الارتفاع أخرى وهذه البئر غير عميقة وذلك نسبة لامتلاء الأسطوانة العميقة بالرمل، ولكن عموماً تماثل بئر عامر في بطانة الحجارة. وخلف هذه النقطة تعرّج طريقنا والتف كثيراً ليتجنب الألسنة الطويلة للرمال والتي كأنها قذفت إلى الخارج بواسطة أحزمة الرمل في اتجاه المنحدر الصخري. وتظهر الآن مستوطنات نهد على مسافات متكررة وتلك التي تتبع لحزيم المذكورة من قبل، وهي عبارة عن قرية صغيرة متكوّنة من نصف دستة من المساكن الشبيهة بالحصن، ثم الحصن المنفرد دويد ثم قرية مالك الصغيرة تحت أرضها الرأسية المهيبة يتبعها حصون شريج في موقع مشابه. ويوجد عند مالك بستان نخيل صغير دون علامات لوجود تمر وخلفها يصبح الطريق وعراً على هيئة شريط من الأرض الحجرية يفصل قاعدة المنحدر الصخري من قنوات السيل الرملية التي تنحني دائرياً من تجويفها إلى الوادي الرئيس. والآن بدأنا نرى الأرض الرأسية قمران وكثر التي تكون بوابات حضرموت وتقدمنا عبر غطاء كثيف من أشجار السدر المنتشرة في الوادي بعيداً عن قاعدة المنحدرات الصخرية.

وبينما كنا نمر على مستوطنة شريج أتى بعض سكانها (من آل ثابت) إلى الطريق ليعبروا عن احتجاج خفيف، ولقد أوضحت لهم مجموعتنا من الجمال الوضع من قبل، والاحتجاج كان بسبب مرورنا عبر منطقتهم لزيارة معسكر أعدائهم

(الحكمان). وحقاً، كان يجب أن نتقبل ضيافتهم، وإن رئيسهم كان موجوداً في مكان ليس ببعيد في أحد الأودية الصغيرة في طيات الجرف. واعتذرنا لهم ووعدناهم بزيارتهم في طريق عودتنا ومن ثم تركونا نمر دون إصرار ولكن هذه الحادثة أكدت لنا الحالة غير المستقرة في هذه المنطقة التي نمر بها. بعد ثلاثة أميال من شريج ولمسافة بسيطة في اتجاه اليسار من طريقنا يقع نخيل وقرية حصن مبارك، مع الحوض الرملي الشاسع الخشعة، الذي يمتد شرقاً في جبهة واسعة لمسافة ثمانية أميال. وهذه المنطقة بها العديد من الحصون والقرى الصغيرة، وقد ذكر أنها تحوي ما لا يقل عن ثلاثين بئراً. ولكن هذه المنطقة ذات الإمكانيات الهائلة لإنتاج الحبوب تظل مهملة وغير مستغلة وبقيت كذلك لسنوات عديدة وذلك يرجع إلى الفوضى التي تتمتع بها قبيلة نهد لتي لا تدين بولاء إلا إلى السلطان القعيطي، فكل قسم يتبع لرئيسه أو زعيمه. وزعماء الحكمان وأهل ثابت في حروب مستمرة مع بعضهم. ومستوطنات الخشعة الأخيرة التي تقع على الطريق هي حصن دويد وقرية رهطان المكوّنة من رقعة من النخيل وثلاثة حصون في وادٍ عريض يخرج من الجرف المجاور.

ابتداء من هذه النقطة فنحن في منطقة آل عجاج ومن ثم تحت حماية زعيم الحكمان وطريقنا يقع على سهل من حبيبات رملية خشنة، والخط الواضح المؤدي لرملة يقع على بعد ميل على يسارنا، والمنحدرات الصخرية للجرف تقع على طول جانبنا الأيمن. ومن الأخيرة أصبح طريقنا قناة ذات خواص ملحية، ما زالت مبتلة من الأمطار الأخيرة، حتى وصلنا إلى أول الآبار في جانب الطريق (الساقية) والتي تميز وادي حضرموت، وقد أنشئت من أجل فائدة المسافرين العطشى نتيجة لفضل تقويم الحضرم. وفم البئر محاط بواسطة جدار حجري منخفض وهي مسقوفة بقبة بيضاء، وهذه البئر تقع عند قاعدة الأرض الرأسية في آل كثير وفي جانبها البعيد وعند التفافنا حول الزاوية رأينا هدفنا المباشر وهو قرية قعوضة وبساتين النخيل وحقول الذرة في وادي «آل كثير» أمامها.

سافرنا حوالي ثلاثين ميلاً بعيداً عن بئر عامر ولم يكن الظهر قد حل بعد عندما ارتفعنا من أعلى الوادي إلى المنحدر المكون من الحصى الخشنة، ومررنا عبر سكان القرية المتجمهرين وفي طرقاتها الملتوية ومن ثم مررنا إلى منزل الشيخ.

بعد تجوال طويل في الصحراء بدا لنا أننا بدأنا نعود إلى الحضارة ثانية. ومكثت ثلاثة أسابيع فقط منذ أن تركنا الراحة والأمان في نجران، ولكنها تبدو وكأنها أطول من ذلك. فالتعب الجسماني نتيجة للسفر في الصحراء لا يعني شيئاً مقارنة بالضغط العصبي والنفسي خاصة في الأراضي الحدودية للصحراء حيث لا يمكن الاستخفاف بالولاءات القبلية. وفي حقيقة الأمر لم نقابل بغير الود والصداقة تقديراً واضحاً لخوف الصحراء من ملك الصحراء[1]، ولكن نجاح كل يوم كان ثمنه القلق في الليلة السابقة، وإنه لشيء جميل أن نشعر أن مشاكلنا وقلقنا قد انتهى لمدة من الزمن. ويمكن أن نستلقي ونرتاح لفترة في أحضان الترف والحضارة. ومن المؤكد أن استقبالنا في قعوضة أنتج أو أكد ذلك الوهم.

مبارك بن محمد بن منيف زعيم قسم الحكمان من نهد رجل جذاب، عمره بين خمس وخمسين وستين سنة وطقم أسنانه المصنّع بغير إعداد جيد جعل من الصعب فهم حديثه. فالرجل لا حدود لضيافته وكرمه ووجه غير زائف. ولقد زار مكة للحج في عام ١٩٣٤م وكانت له أحاديث كثيرة وعديدة ودية مع ابن سعود. وكان لا يخفي حقيقة أنه تابع لملك العرب[2]. وعلى الأقل فإنه يرفض ارتباطه بولاءات أخرى ،لكنه يحتاج للسلاح للحفاظ على موقعة في عالم القبائل المكتظ بالأعداء. وكان هذا همهُ الشاغل الآن. وعن الأمور الأخرى كانت معرفته ضئيلة على الرغم من سنوات عمره

(١) يقصد بملك الصحراء الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -طيب الله ثراه- وهذا اللقب واحد من الألقاب العديدة التي أطلقت عليه من قبل الكتاب والمؤرخين. (المراجعون).

(٢) ملك العرب: لقب من الألقاب العديدة التي أطلقت على الملك عبدالعزيز -رحمه الله-. (المراجعون).

المديدة، وفي المواضيع الأخرى ليس لـديه ما يثير الاهتمام إلا الـقليل. ومنزله عبارة عن قلعة من الطراز الحضرمي. فالبناء كـالح وكئيب من الخارج وجميل من الداخل، وحجراته واسـعة ولطيفة بسيطة الأثاث. ويلاحظ أن الدرج والممرات والحـجرات لها أرضية من الأسمنت وكذلك الحمامات والمراحـيض نظيفة جداً. ولقد تم توجيهنا إلى أعلى إلى الغرفة الرئيسة للضيوف في الطابق الثالث وهي غـرفة كبيرة مربعة ومدعمة بأربعة أعمدة رفيعة من الخشب ومنحوتة ببساطة في الوسط. والجدران مطلية بحرص خالص وبهـا نوافذ في ثلاث جهات مـتجهة إلى الخـارج. ويلزم التنويه إلى أن عدداً كبـيراً من الطبقة الحـاكمة قد تجـمعوا لاسـتقبالنا. وبينـما كنا نجلس في شكل دائرة مـتكئين على وسائد على الأرض، كـان أحـد العبـيد يصب لنا القـهوة في أكـواب صغيرة، كوب واحد لكل شخص من الحاضرين. وتوضع الأكواب عادة على الأرض بالقرب من الضـيوف لكن بالنسبـة لي فقد وضعت أمـامي ثلاثة أكواب على الأقل. وكانت هذه أول تجـربة لي مع هذه الطريقة المميـزة الحضرميـة للترفيه عن الضـيوف. وثمة إشارة وهي أن الملابس التي يلبسها الناس المجتمعون كانت متنوعة.

العديد منهم كان عاريًا حتى الخصر ويلبسـون قماشًا يحيط بالخاصرة ومربوطًا بعدد من قطع قمـاش أخرى يخرج من طياتها خنجر في غمـده المحلّى بالجواهر. أما الآخرون فقـد كانوا يلبسون قمـصانًا تغطي الصدر (صديرية) بسيط بالإضـافة إلى ما وصف، بينما يضـيف البعض لهذا بدلة من قمـاش ملون ذات زرار واحد عند العنق ولكن يظل الجزء الأكبر مفتوحاً.

بعد ذلك قدمت لنا وجـبة منتصف النهار في ثلاث صـوان دائرية مصنوعة من أغصان الدانة مجدولة وضـعت على الأرض كل واحد في ركن من أركان الغرفة وفي وسط كل منها وضـعت طاسة كبـيرة من المرق حولهـا الأرز ولحم الضأن. ولم يكن هناك خضار أو أي إضافات أخرى للوجبة والتي كانت غير مثيرة ولكن مطهية جيداً. وجلس مضـيفنا بعد تـردد معنا في منضدة الزعـيم عند إصرارنا على الدعـوة، وبعد

الوجبة سألت إذا كان من الممكن أن تخصص لي غرفة للراحة، وقد دعيت إلى غرفة صغيرة نظيفة مجاورة لحجرة الضيافة الكبيرة. وأيقظني من النوم صوت عالٍ لطلقات رصاص عند الساعة الرابعة بعد الظهر ويبدو أن هنالك شخصاً كان في وضع مكشوف للعدو المتربص في المنطقة المحيطة بالقرية. كانت هذه هي الطلقات الأولى التي سمعتها منذ أن بدأت رحلتي في شهر نوفمبر السابق. وبينما كنت أنظر من خلال النافذة إلى الجمهور المتجمع حول السيارات في الشارع رأيت مجموعة صغيرة من الفتيات في البلكونة السفلى ينظرن مثلي. ومن المفترض أنهن بنات مضيفة مع صديقاتهن وخدمهن وأعمارهن تمتد من سنوات قليلة حتى اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة. وكان منظرهن جميلاً للغاية، كن يلبسن ثياباً مُزَهَّرة (بها رسومات أزهار) من الأزياء المحلية، قصيرة من الأمام ولكنها طويلة مجرجرة من الخلف. ويبدو أن اللون الأحمر هو السائد مع أنماط من الأخضر والأسود والأصفر، والعنق مربع يميل على الكتف على جانب أو آخر. رؤوسهن غير مغطاة وشعرهن مصفف باهتمام مع فاصل في الوسط وضفائرهن بها أشرطة، وبعضهن ذوات جمال خلاب مع وجود الكثير من الآثار السيئة الصغيرة من عهد الطفولة.

كانت الساعة الخامسة بعد الظهر عندما غادرنا منزل الشيخ مبارك واعدين إيَّاه بزيارته ثانية في طريق عودتنا. وبدأنا الرحلة من قعوضة إلى هينن والتي يمكن رؤيتها بغير وضوح في الجانب الآخر للوادي تحت المنحدر الصخري قمران والخليج العظيم المحاط بالمنحدر الصخري الذي يعرف بوادي الكثير هو حقيقة عبارة عن اتحاد لثلاثة أودية هامة، هي: وادي دوعن، ليسر، وعمد والتي تجري قناتها المشتركة الآن شمالاً عبر وادي حضرموت لتروي حقول هينن، والتي يروى جزء من منطقتها من وادي عين الذي يجري إلى الوادي الرئيس من جهة الشمال. ولا شك أنه في مواسم السيول الاستثنائية فإن مياه دهر و رخية تصل إلى هذه المنطقة، على الرغم من أنها قد لا تمتد خلف أرض الخشعة. وعبر الخليج عندما بدأنا رأينا صورة وديار البقري وقد زارتهما

فريا ستارك حديثاً، والتي تُطلق على قعوضة دائماً المدينة المنافسة أسفل المنحدر الصخري.

كان الزمن كافيًا للوصول إلى هينن عند مغيب الشمس ولكن تضافر بعض الظروف المعاكسة أخّر وصولنا حتى بعد الظلام. وكانت المسافة حوالي ثمانية أميال، وزامن عند مرورنا في حافة وادي حضرموت هبوب عاصفة رملية غطت المنطقة أمامًا، وسرعان ما أحاط بنا الضباب الكثيف مما أرغمنا على التوقف. لم يكن بإمكاننا أن نرى إلى أبعد من ياردة أمامنا، إضافة إلى ذلك أن الوادي كان قد قطع بواسطة قنوات سيول حديثة، وعليه فإنه من الخطأ أن نتقدم دون التمكن من الرؤية. ونتيجة لهطول أمطار خفيفة توقفت العاصفة، ولكن كان تقدمنا بعد ذلك في اتجاه أسفل قناة السيل يعوقه بين الفينة والأخرى وجود بقع مشبعة بالماء والتي تتسبب في وحل السيارات، وعليه فقد وصلنا إلى قرية آدم بصعوبة وهي قرية كثيفة السكان على الضفة اليمنى للقناة لنجد أنفسنا في وسط منطقة العدو.

وتتبع القرية إلى آل ثابت المنافسين لمضيفنا الحالي. ولم يكن هناك ما يخفي إننا قضينا وقتاً في قعوضة. وقائدنا بالتأكيد واحد من رجال مبارك الموثوق بهم. وعليه فقد أوقفنا في وسط القرية بواسطة جمهور كبير من أهلها الذين لم يكونوا عدوانيين ولكن من الواضح أنهم لا يعترفون بحقنا في المرور وقد عبّروا عن اعتراضهم لقائدنا وادعوا الحق في أن يرشحوا قائداً منهم. وكان من غير الممكن لي أن أعترض، ولحسن حظنا فإن شيخ القرية قد قرر أن يرافقنا وهو رجل صغير العمر يدعى شيبان، يمكن أن يتخذ كنموذج لتمثال أبولو، عارٍ ما عدا وجود قطعة قماش تحيط بالخاصرة وخنجر وحزام عريض وبندقية، نموذج للإنسانية كما يمكن تخيله، ونُقلَ القائد الذي أتى من قعوضة إلى سيارة النقل بينما ركب معي شيبان كمرشد وعليه فقد خرجنا بسرعة من الجمهور المهتاج إلى الظلام المتجمع الذي عمَّ الوادي، متجنبين قناة السيل ومتقلبين على متاهات كثبان الرمال التي في طريقنا. ولحسن حظنا فإن الأمطار

والسيول التي حالت دون استخدام القناة كطريق للسفر جعلت الكثبان الرملية صلبة. أما شيبان الذي لم يركب سيارة أبداً من قبل فقد أرشدنا بكفاءة مذهلة، وكان لابد لنا من التوقف بين فترة وأخرى لنبحث عن ممر بين كثبان الرمال. وعند اقترابنا من عينن شكلت الحقول التي جُرفت حديثاً وغمرت بالمياه للزراعة، عائقاً آخر لتقدمنا، ولكن الحظ كان حليفنا، فعند الساعة السابعة في المساء تمّ الترحيب بنا في أول نقطة حدودية للسلطنة القعيطية، وهي جزيرة من الحضارة في البحر المضطرب بفوضى نهد.

الوصول إلى حضرموت من شبوة كان من خلال منطقة قبلية مستقلة تتبع الكرب (آل مسفر) حتى قرن البنا وإلى أقسام مختلفة من نهد بين تلك البقعة وبين مداخل حضرموت. وتمتد منطقة نهد حقيقة في الوادي حتى فرت -مع عدم تبعية هينن لسلطانها- حيث تبدأ سلطة القعيطي. وشبوة نفسها كما رأينا تقع في منطقة آل عويرة (الكرب) بينما الجروف والسهل الشاسع في حوق التي تقع إلى الجنوب من خط سيرنا تتبع لعناصر مختلفة من مجموعة قبائل بلعبيد -والتي يعرف الكرب فيها أكبر وأهم وحدة- حتى المواقع العليا من دهر ورخية، حيث وجدنا عناصر نهد "الشحابلة Sahabil" المستقلة.

ومن ناحية جغرافية فإن محافظة حضرموت محاطة من الغرب بخط وادي عمد ووادي هينن مرتبطة عبر الوادي الرئيس بوادي الكثير من قعوضة إلى هينن. ومن الوجهة السياسية فإنما تكون سلطنتا القعيطي والكثيري مع عدد من الوحدات القبلية المستقلة أو شبه المستقلة وتعد الحدود الطبيعية الجنوبية هي الحد أو الخط الفاصل الذي يقسم وادي حضرموت من الممرات الضيقة والسهل الساحلي للشحر والمكلا، وهي إمارة تتبع للقعيطي والتي يتبع لها سياسياً القسم القعيطي من حضرموت. وإلى الشمال من هذا الحد الفاصل وإلى الغرب من خط عمد هينن توجد منطقة قبائل مستقلة تمتد حتى وصولنا إلى حدود سلطنة العوالق (العليا

والسلى) التي تقع تحت الحماية البريطانية. وإلى الشمال من خط سيرنا وخلف الحزام الرملي لرملة السبعتين تقع منطقة الصيعر التي تمتد حتى الأرض الرأسية لطرف العين في جهة الشرق، بينما الأراضي بين تلك البقعة وهين تتبع آل زيد من الكرب. وكلا الوحدتين القبليتين مستقلتان تماماً على الرغم من أن القسم البدوي للصيعر والممتد عبر الصحراء حتى حدود نجران ينظر أهله لابن سعود كسيدهم المعروف دون حدود.

وحسب علمي حتى الآن فإن الأوربي الوحيد الذي حاول من قبل القيام باستكشافات جغرافية جادة في هذه البلاد التي وصفت في هذا الفصل هو قائد سرية أ.ر.م ريكاردس الذي سافر من حضرموت في عام ١٩٣٣م عبر طريق أحياناً يتطابق مع طريقي هذا ويختلف في أحايين أخرى، والتفّ حول جنوب شبوة -والتي لم يرها أو يزرها- ومتقدماً ناحية الغرب إلى أنصاب وبيحان بطريق سوف تسنح لي الظروف أن أصف جزءاً منه في فصل قادم من الكتاب. ولا يبدو أنه عرف أن الأودية المهمة دهر برخية هي روافد من وادي حضرموت وفي خريطته غير المنشورة جعلها تجري في اتجاه لعبْر. ووفاته في حادث طائرة أثناء رحلة طيران استكشافية فوق الساحل العربي للخليج العربي في خريف ١٩٣٧م ترك فراغاً يؤسف له في سلسلة استكشافات الجزيرة العربية. والذي يستخدم الطائرة له فرصة ضئيلة لعمل فعال في بلاد العرب، ولكن بالتأكيد أن هذا الرجل تمكن من استغلال الفرص التي تأتي في طريقه استغلالاً تاماً وبالتالي حصل على مكان مع أولئك الذين ساهموا في زيادة معرفتنا ببلاد ما زال ماعرف عنها نزراً يسيراً.

إضافة لقائد السرية أ.ر.م. ريكاردس فإن الكولونيل يوسكوين الذي لا يصرح أبداً عن رحلاته المكثفة في جنوب البلاد يجب أن يكون قد رأى شيئاً من هذه البلاد في رحلته غير المكتملة لزيارة شبوة. وأخيراً هانز هلفريتز الذي سافر عام ١٩٣٤م و ١٩٣٥م عبر هذا الطريق أثناء رحلته إلى بيحان وشبوة على التوالي. وفي المرة الأولى

قد عـدّ خطأ أن عياذ هي عرمـا بينما في الرحلة الثانـية -بعد طيرانه من شـبوة- زار عرمـا، من الواضح دون أن يدرك خطأه الأصلي. ووصفه لهـذه الرحلات ذو قيـمة علمية ضئيلة ما عدا الصور لفوتغرافية الرائعة التي التقطها.